محمد والمرأة

مواضيع الخطابة كثيرة والحفلات الخطابية ايضاً كثيرة، ولكن الحفلة الممتازة بسيداتها وساداتها ينبغي ان تكون ممتازة بموضوعها ولطيف اشاراتها.

فمن لي ياسادتي بموضوع ممتاز كامتياز حفلتكم هذه؟ حقاً ان مراعاة التناسب بين الموضوع والحفلة هو موضع الصعوبة في الامر.

فسرت يوما كلمة النساء امام فتاة متعلمة وقلت ان معناها الطرد والابعاد والتأخير ومنه سميت «المنسأة» وهي العصا ـ منسأة ـ لان الراعي يطرد بها غنمه. فاحتدمت الفتاة غيظاً وقالت: اذن سمى العرب النساء نساءً لأنهن مبعدات مطرودات؟!!

فعجبت من استنتاجها، وتعوذت بالله من لجاجها، واجبتها على اعتراضها بما ارضاها في الجملة.

ولما دعيت الى الخطابة في هذه الحفلة رأيت الفتاة المذكورة يوماً مهتمة بمطالعة كتاب.

فسألتها: ما هذا الكتاب؟

قالت: الزبيدي.

والزبيدي ايها السادة كتاب ديني اختصر فيه مؤلفه احاديث البخاري كلها.

فشجعتها على قراءته واثنيت عليها لاختيارها هذا الكتاب للمطالعة، بدل تلك الكتب التي تولع بها الفتيات عادة. اكملت الفتاة مطالعة الزبيدي ولم تكد تلقيه من يدها حتى التفتت الى من حولها وقالت:

انني لم اجد في جميع الاحاديث التي قرأتها في هذا الكتاب ما يشعر بان النبي صلى الله عليه وسلم كان يحتقر المرأة؛ بل على العكس رأيته يكرمها ويسوي بينها وبين الرجال في التكاليف والاحكام.

فمن اين جاءت تهمة شارعنا الاسلامي بأنه يحقر المرأة او يعلم بالحط من كرامتها؟!!

فلا اكتمكم ايها السادة ان سروري باستنتاجها هذه المرة انساني اغتمامي باستنتاجها في المرة الاولى.

وسررت بالاً كثر مذ ظفرت بموضوع الخطاب الذي ارغبه لحفلتكم هذه. وناديت: وجدته، وجدته! كما نادى ارخميدس: وجدتها، وجدتها.

نعم، وجدت الموضوع ايها السادة، لكنني لم اجد الوقت اللازم لتوفيته حقه. لأن جميعة التهذيب — والشكر لها على كل حال — لم تعطني وقتاً للكلام في حفلة. وانما اعطتني وقتا للمخابرة في تلفون. فاعذروني اذا اسرعت او اذا اختصرت.

* * *

كان العرب بمقتضى طبيعة بلادهم وتركيب امزجتهم يرون في المرأة هناءهم وراحة نفوسهم. فاحبوها وكادوا يعبدونها. كما انهم بمقتضى طبيعة اجتماعهم ونظام الغارات والسبي المتعارف بينهم كانوا يرون في المرأة سبباً

لمذلتهم ولحوق العار بهم . فتشاءموا بها الى حد ان وأدوها . فكان العرب بين جاذبين : جاذب من طبيعة اقليمهم وامزجتهم يجذبهم الى المرأة ، وجاذب من نظام اجتماعهم وحروبهم يبعدهم عنها .

وقد ولد محمد (ص) في جزيرة العرب واهلها على ما وصفنا من الحالتين : فأقر الحالة الاولى : حالة حب المرأة و باركها هاتفا : (ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة و رحمة) .

وقبح الحالة الثانية — حالة التشاؤم بالمرأة فرفع قدرها وارجعها الى عرش سيادتها ونادى قائلا : « المرأة سيدة بيتها »

« المرأة راعية في بيت زوجها وهي المسؤولة عن رعيتها » . فالغرض من نبوة محمد اذن ليس توحيد الله فقط بل والتبشير بالمرأة والاحتفال بارجاعها الى عرش سيادتها .

قال عمر بن الخطاب : « والله كنا في الجاهلية ما نعد النساء شيئا . حتى انزل الله فيهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم . »

ومن تتبع سيرة النبي (ص) في ادوار حياته ادرك الاسباب التي جعلت نفسه الشريفة مستعدة لقبول هذا الوحي النسائي .

مات ابوه ثم امه وعمره بضع سنوات . فتولت حضانته فتاة حبشية اسمها (بركة) وتكنى « ام أيمن » وقد عكفت هذه الفتاة على تربيته وخدمته حتى بلغ الخامسة والعشرين من عمره .

فكان قرير العين بما كان يراه في حاضنته هذه من العطف والعناية .وشعر بأول وظيفة من وظائف المرأة في هذا الوجود : المرأة من حيث هي امرأة ،

حتى ولو كانت حبشية ومملوكة، ولم تنتم الى عرق في العرب، او شرف في النسب.

ثم شاءت العناية الالهية ان تنقل محمداً (ص) الى العيش بقرب اشرف امرأة في قريش فتزوج السيدة «خديجة بنت خويلد».

شيء جديد في حياة محمد: انتقل الى طور آخر من معرفة المرأة، واختبار وظائفها. ولم يعد ذلك الشاب الذي تخدمه حاضنته متواضعة فيكرمها؛ بل الشاب الذي تحبه امرأة شريفة ويحبها.

هو شاب في الخامسة والعشرين وهي كهلة في الاربعين، كأن العناية الالهية رأت انه مازال في شبابه محتاجاً الى عطف امرأة ذات سن وتجربة وثروة فيسرت له الاقتران بخديجة.

مات زوجها الاول فخطبها اشراف قريش فامتنعت وفضلت الاستقلال بنفسها، والعكوف على اعمال تجارتها. وكانت تبحث عن ثقة من الرجال تكل اليه اشغالها. فما لبثت ان اهتدت الى محمد. فلم تره اميناً على مالها فقط بل وعلى قلبها ايضا، فأودعته ذلك جميعه

كل من رأى محمداً (ص) وسمع كلامه كان يشعر بأنه سيكون له شأن في نهضة العرب، وانقاذهم من جاهليتهم ولم يكن هذا ليخفى على خديجة. فكانت تعتقد ان خطيبها سيكون من عظماء الرجال، ومربي الأمم والاجيال، فزادت ولوعا به وحرصا على محبته.

قال أنس: «كان النبي (ص) عند عمه ابي طالب، فاستأذنه في ان يتوجه الى خطيبته خديجة، فأذن له. وبعث في اثره جارية تسمى (نبعة). وقال لها:

انظر ي ما تقول خديجة لابن اخي محمد . »

قالت نبعة : « فرأيت عجباً : ما هو الا ان سمعت به خديجة فخرجت الى الباب فأخذت بيده فضمتها الى صدرها و نحرها. ثم قالت له : بأبي وامي . لا أفعل هذا الشيء (الذي نهيتني عنه) . ولكنني ارجو ان تكون انت النبي الذي سيبعث . فأن تكن هو فاعرف حقي و منزلتي وادع الاله الذي يبعثك ان يبعثك لي . »

قالت نبعة : فأجابها محمد :

و الله لئن كنت انا هو لقد اصطنعت عندي ما لا أنساه ابداً . وان يكن غيري فأن الاله الذي تصنعين هذا لاجله لا يضيعك ابداً »

***

لم يكن محمد ذا حظ من مال ونشب . و لم تكن اسباب رغد العيش متوفرة لديه ، وقد توفرت لديه الان مذ تزوج بخديجة .

فما هو صانع ؟

ايتخذ من مال زوجته ونعمتها وسيلة الى اللهو والدعة والنعيم ؟

كلا : وانما اتخذ محمد الشاب من مال زوجته وسيلة الى فراغ قلبه من هم العائلة ، كما اتخذ من حبها وطاعتها له وسيلة الى التفرغ لعبادة خالقه ، والى القيام بالعمل العظيم الذي يشغل باله .

ها هو محمد قد اعتزل الناس ، والتجأ الى غار في جبل حراً ، يناجي ربه ، و يسأله ان يهدي شعبه .

وها هي خديجة امراته تشجعه وتبث الثقة والصبر والثبات في نفسه .

ها هي تهيء له الزاد ليتقوت به في اثناء عزلته الطويلة. ها هي مجدلية محمد في سفح الجبل مشرئبة الى الغار الذي اعتزل فيه زوجها، وقلبها مفعم بالرجاء والايمان والثقة بالمستقبل.

وهكذا نرى النبوة ولدت على يد المرأة «خديجه» بينما لم يشهد ولادتها احد من الرجال. لا ابو بكر ولا عمر، ولم يسمع بذكرها علي ولا معاوية.

ثم ماتت خديجة. فشاء ابو بكر اكبر صحابة محمد «ص» ان يتشرف بمصاهرته فزوجه ابنته (عائشة). لم تكن عائشة زوجة فقط بل وتلميذة ايضاً. وهنا هو الطور الثالث من اطوار محمد مع المرأة: بركة الحبشية تسهر عليه في طفولته، وخديجة الكبرى تحوطه وتشجعه في شبيبته، وعائشة الصديقة تسره وتكون تلميذة له في كهولته.

اختبر محمد (ص) المرأة في جميع ادوار حياته وامتزجت عاطفته بعاطفتها طفلا وشابا وكهلا. وكان لها من التأثير في حياته ما جعله يرفع منزلتها، ويعلن حريتها، ويسوي بينها وبين الرجال.

ومن اعجب المصادفات ان ينعقد مجمع (ماكون) في زمن محمد اي في سنة (٥٨٦) للميلاد ويبحث في: هل المرأة انسان؟

ثم قرر انها انسان لكنها انما خلقت لخدمة الرجل. ولم يكد يصدر قراره هنا في اوربا حتى نقضه محمد في الحجاز ورفع صوته قائلا:

«انما النساء شقائق الرجال».

بل قال للرجال: الستم حريصين على دخول الجنة؟ هذه الجنة التي تحرصون عليها (هي تحت اقدام الامهات) وكل امراة أم ان لم يكن بالفعل فبالقوة

ولم يقل احد في تكريم المراة مثل هذا القول الذي قاله محمد. واذا كان قوم يحسبون المرأة شيطاناً فان محمداً كان يراها تعويذة من الشيطان.

سأل فتى من صحابته وهو (معاذ بن جبل):

— الك زوجة يا معاذ؟

— كلا.

— انت اذن من اخوان الشياطين. (يعني وكان الواجب عليك ان تتعوذ من الشياطين بامرأة تتزوجها). وقد اراد محمد (ص) بتكريم المرأة ورفع شأنها في عيون الرجال على هذه الصورة افهامهم ان نهضته الجديدة انما تقوم على سواعد الجنسين معا: الرجال والنساء، شأن النهضات العالمية الكبرى. ولما رأى النساء العربيات هذه النهضة التي نهضها بهن محمد اغتبطن بها، ونشطن الى الازدياد منها؛ حتى انهن لما رأين انفسهن مغبونات في بعض حقوقهن عقدن اجتماعا منهن وقررن فيه ان يرفعن الى النبي (ص) مطالبهن فرفعنها بواسطة مندوب منهن واسم مندوبهن: (اسماء بنت يزيد الانصارية) جاءت اسماء النبي وقالت له:

«اني رسول من ورائي من جماعة النساء وكلهن يقلن بقولي وعلى مثل رأيي».

ثم عرضت على النبي مطالب النساء اللواتي ارسلنها. فاجابها النبي عليها بما ارضاها، واعلن سروره بحديثها وجرأتها، والتفت الى من حوله من الصحابة وقال:

«هل سمعتم مقالة امرأة احسن سؤالا عن دينها من هذه المرأة؟»

وكفى بقوله هذا تنشيطا للمرأة وتنويها بقدرها. وكان النبي (ص) يحب

ان لا يستبد على المرأة في امر زواجها، فهو يعطيها الحق في ان تتزوج من تختاره، ويطيب لها العيش معه بشرط ان لا يحط هذا الزواج من كرامة عشيرتها.

هذه الفتاة (بريرة) كانت مملوكة للسيدة (عائشة) فاعتقتها. وكانت (اي بريرة) متزوجة برجل اسمه (مغيث) فلما ملكت حريتها ملكت حق الاختيار في ان تبقى زوجة لمغيث او لا.

ويظهر ان بريرة ما كانت في راحة من العيش مع (مغيث) فاعلنت انها لم تعد تريده زوجاً لها.

فصعب الامر على مغيث وكان يحبها حباً جماً. فاسترضاها فلم ترض.

ها هي بريرة تمشي في سكك المدينة، ومغيث المسكين يمشي وراءها ودموعه تتحدر على وجنتيه والناس ينظرون اليه، وقد اخذتهم الشفقة عليه؛ وبريرة لا ترق ولا ترحم.

ارحميه يابريرة. ارثي لحاله. اعطفي عليه. كلا! لا اريده.

اخبروا النبي(ص) بخبر بريرة ومغيث. فدعاها اليه، وكلمها بشأنه فقالت له: اتأمرني امراً يا رسول الله؟

— لا، وانما انا شفيع.

— لا حاجة لي فيه.

فلم يعارضها النبي ولم يلمها في استعمال حريتها مع انها عتيقة زوجته، وانما التفت الى عمه العباس وقال له:

(يا عباس، الا تعجب من حب مغيث لبريرة، ومن بغض بريرة لمغيث؟)

وكما كان النبي (ص) يعترف للمراة بحقها في الاستقلال بمصالحها الخاصة كان يرى لها الحق ايضا في ان تشارك الرجال في خدمة المصالح العامة.

واهم تلك المصالح في ذلك العهد مسألة تأييد الدعوة الاسلامية ومقاومة الذين يعارضونها: فكان للمرأة المساعي الحسنة في هذا السبيل وقد توفرت طائفة من نساء الصحابة على مرافقة الجيش وخدمة المحاربين.

قالت ام عطية: «كنت اصنع للمحاربين طعامهم واحفظ لهم خيامهم واداوي جرحاهم واقوم على مرضاهم..»

وقالت ام سنان: لما اراد النبي الذهاب الى خيبر جئته فقلت له:

— أ اخرج معك في سفرك هذا: أخرز السقاء، واداوي المريض والجريح واحافظ على الرجال؟

— «اخرجي على بركة الله: فان لك صواحب سألنني الخروج معي فاذنت لهن. فكوني مع زوجتي ام سلمة.» اما ام كبشة فلما استأذنته في الخروج معه قال لها — لا. فقالت له:

— اني اداوي الجريح واقوم على المريض.

— اجلسي لا يتحدث الناس ان محمداً يغزو بامرأة. فانظروا ايها السادة كيف ان النبي (ص) علل عدم اخذها معه بالخوف ان يشيع بين القبائل ان محمداً لا رجال عنده ولا ابطال، فهو يحارب بربات الحجال. ولم يقل لها اجلسي فليس الخروج مع الجنود من شأنك.

وقال أنس: انني في وقعة أحد رأيت زوجة النبي عائشة ومعها امي (ام سليم) مشمرتين ارى خلاخيلهما وهما تقفزان قفزاً، وعلى ظهورهما قرب الماء

تفرغانها في افواه العطاش ثم ترجعان فتملانها، ثم تجيئان فتفرغانها في افواههم. وهنا امرأة اخرى هي (رفيدة) الاسلمية. ما كانت ترافق الجيش وانما نصبت خيمة في مسجد النبي وجعلت تداوي فيها الجرحى وتعالج المرضى.

ولما جرح سيد الانصار (سعد بن معاذ) في وقعة الخندق قال لهم النبي (ص): اجعلوه في خيمة رفيدة.

هذه وظيفة رفيدة في زمن الحرب. اما في زمن السلم فكانت تأتي بالعجزة والبائسين الى خيمتها فتخدمهم وتخفف اتعابهم، فنعمت الخيمة خيمة (رفيدة): كانت مستشفى عسكرياً وقت الحرب، وملجأ للعجزة ايام السلم.

وجاء رجل من المشركين المحاربين الى السيدة (ام هانيء) واستجار بها فاجارته. فعارضها بعض الصحابة واراد ان لا يعتبر جوارها فاغتاظت منه وشكته الى النبي فقال لها: « قد اجرنا من أجرت يا أم هانيء. » وهذا من ام هانيء مداخلة في امور سياسية عسكرية. وقد رأى النبي (ص) ان لها الحق فيما فعلت. ولم يقل لها: ان هذا ليس من شأنك فعليك بالطبخ والزينة وتربية الاولاد فقط.

ولكن مع هذا ايتها السيدات كان محمد يرى ان الزينة وادارة المنزل هما اكبر وظائف المرأة.

فكما كان يباهي بالمرأة القرشية التي تحفظ مال زوجها وتعكف على تربية اولادها — كان في الوقت نفسه يعجبه ان لا تنسى المرأة انوثتها، ولا تهجر زينتها، ولا تعطل بحال من الاحوال امومتها، حتى انه كان يكره ان لا يرى اثر الخضاب في كفي المراة (وكان الخضاب اجمل زينة للنساء في

العصور الماضية).

قالت ام سنان : بايعت النبي على الاسلام فنظر الى يدي وليس فيها اثر للخضاب فقال :

« ما على احداكن ان تغير اظفارها وتعصب يدها ولو بسير ، فهو يخضها على الخضاب وان يكون في معصمها سوار ولو سيراً من جلد . »

* * *

عرف محمد (ص) نفيسة المراة وغرائزها الخاصة بجنسها فكان يعاملها بمقتضى ما عرفه منها : فيكثر من تأنيسها والرفق بها و إلانة القول لها .

وان كثيراً مما كان يعامل به نساءه نراه اليوم غير لائق ولا مناسب :

من ذلك انه كان يخرجهن معه في اسفاره .

وكانت احداهن اذا ارادت الركوب بسط لها ركبته لتدوس عليها وتصعد الى هودجها .

واذا كان معها في الفلاة سابقها اشواطاً لاجل الرياضة وادخال المسرة عليها .

وادخل الحبشة يوم عيد الى المسجد لترى لعبهم بالحراب كما يلعبون اليوم بالسيف والترس .

وكان للنبي (ص) جار من بلاد فارس ، فدعا هذا الفارسي النبي الى طعام ولم يدع معه زوجته السيدة عائشة ، فلم يقبل النبي الدعوة ما لم تكن معه عائشة فدعاها . وكأن النبي يرى ان ترك دعوتها اهانة لها . ولذا رفض الدعوة ما لم تدع هي ايضاً .

ونهى الرجل عن ضرب زوجته ونبهه الى ان ضربها لا يلائم طبيعة ما

بينهما من العلاقة الزوجية : يضربها العصر ثم لا يلبث في العشي ان يتملقها ، ويلح في استرضائها ، فما اغناه عن الحالتين .

وما زالت الشرائع الانكليزية الى اليوم تجيز للزوج ان يضرب زوجته لكن بعصا لا تزيد ثخانتها على الاصبع .

وكان النبي (ص) يكرم حاضنته (بركة الحبشية) ويقول للصحابة: هذه امي بعد امي . وكان يمازحها احيانا : طلبت منه جملا تركبه . فوعدها بان يهدي اليها ابن الناقة . فصاحت : وماذا اصنع بابن الناقة ، وهل يطيق ان يحملني ؟ اريد جملا . فضحك الصحابة وقالوا لها: ويحك يا بركة ، وهل الجمل الا ابن للناقة ؟ وراى النبي (ص) في صبيحة يوم من الايام نساءً مقبلات من عرس ومعهن صبيانهن فوقف لهن وهتف قائلا : « اللهم انتم من احب الناس الي . اللهم انتم من احب الناس الي » .

نعم ايها السادة هو يحب النساء لأنهن يربين الرجال كما ربته (بركة) في يتمه ، ويساعدن الرجال في النهضات الكبرى كما ساعدته (خديجة) في نهضته ، وينشرن الثقافة والعلم عن الرجال كما فعلت (عائشة) مذ حملت عنه ثقافته وبلغت امته سنن شريعته .

* * *

تبشير محمد (ص) بالمرأة وتحريره لها من عبوديتها القديمة لم يخف امره على العلماء من كتبة أوربا حتى غير المنصفين منهم . فقد قال المستشرق (اندره سرفية) في كتابه الذي سماه : الاسلام ونفسية المسلمين L'Islam et la Psychologie des Musulmans. ما نصه :

« يتحرى محمد الاسباب التي تجعل المراة من حزبه ولا يتكلم عنها الا بكل لطف، ويجتهد في ان يحسن احوالها.

وكان النساء والاولاد قبله لا يرثون. بل من ذلك ان الاقرب نسبا للميت هو الذي كان يرث نساء الميت في جملة ما يرث من مال ورقيق. وعندما نهض محمد اعطى المرأة حق الأرث. واوجب كل ما كان حسنا في حقها.

ثم قال: «ومن اراد التحقق من عناية محمد بالمرأة فليقرأ خطبته في مكة التي اوصى فيها بالنساء. فمحمد لا يجهل ان المرأة اذا كانت اسيرة في النهار فهي سيدة في الليل وان نفوذها ابداً عظيم».

هذا ما قاله اندره سرفيه وهو بالرغم من طعنه في محمد — لم يتمالك عن التصريح بأنه حرر المرأة.

بل ان العالم الالماني (دريسمان Driesman) صرح بان اعطاء محمد المرأة حريتها هو وحده السبب في نهوض العرب وقيام مدنيتهم. ولهذا لما عاد اتباعه فسلبوا المرأة هذه الحرية انحطوا واضمحلت مدنيتهم.

❀ ❀ ❀

وقول اندره سرفيه، ان محمداً لا يجهل ان المرأة اسيرة في النهار، فيه لمز وتشنيع بالاسلام يحق لنا ان نعاتبه عليه: لا نعلم ما هذه الامور التي جعلت اندره سرفيه واضرابه يلهجون بان المرأة المسلمة اسيرة او في حكم الاسير؟ ايريدون بتلك الامور يا ترى: الحجاب، والطلاق، وتعدد الزوجات، وتنصيف الارث، وتنصيف الشهادة؟ لا يمكننا ان نتكلم عن هذه الامور الخمسة او الكليات الخمس بالتطويل وذلك لضيق الوقت من جهة ولان هذه

الكليات طال فيها الجدال بين المسلمين وغيرهم بحيث اصبح الحديث عنها مملا . ومع هذا فسأقول فيها كلمات تلفونية :

☆ ☆ ☆

اول هذه الامور (الحجاب) وكلمتي فيه ان البشر من يوم اخذوا هذا الطور الاجتماعي وجد فيهم طبقات ارستقراطية يرون من مصلحتهم او تميزهم ان يحتجبوا او يقللوا مخالطة غيرهم من الطبقات وهذا كما يفعل الملوك والملكات بل عظماء الناس ونساؤهم الى يومنا هذا .

ونبوة محمد (ص) ليست من الارستقراطية في شيء : فلم يضرب بينه وبين عامة الناس حجابا : فكانوا يدخلون بيته لتلقي العلم كما يدخل التلاميذ مدرسة استاذهم . لكن بعض هؤلاء التلاميذ كانوا ثقلاء في حديثهم وطول زياراتهم .

فأشار عمر على النبي (ص) بمنع الناس من دخول بيته فلم يوافقه النبي احتفاظا بما نسميه اليوم (ديمقراطية) وتجنبا للمظاهر الملوكية .

ثم اشتدت ثقالة الثقلاء فنزل الوحي بحجاب نساء النبي وعدم دخول احد من الناس بيته ، اللهم الا في احوال خاصة . هذا هو المظهر الوحيد من مظاهر الارستقراطية الذي اضطر اليه محمد بسائق الحاجة الماسة .

ثم اخذ المسلمون يقلدون نبيهم عملا بقاعدة « الناس على دين ملوكهم » فحجبوا نساءهم حتى اصبحت كل امرأة مسلمة ملكة محجبة ، وكل بيت لمسلم بلاطاً ملوكياً .

ولكن ما اسوء مصير الامة التي ليس فيها رعايا عاملات وانما كل نسائها

مكتبة مجمع اللغة العربية

ملكات الحجبات !

فالحجاب الاسلامي ياسيداتي وسادتي انما هو اثر من آثار ارستقراطية المرأة وملكيتها في الاسلام، وليس هو اثراً من آثار احتقارها او عبوديتها.

انتهت كلمتي في الحجاب، وانتقل الى الكلمة الثانية في توريث البنت نصف ارث اخيها.

هذا الحكم الشرعي الاسلامي يجيب عليه الشارع الانكليزي الذي لم يورث البنت بل حصر ثروة الأب في اكبر الأبناء. وذلك لأن البكر عميد الاسرة، وحامل لقبها، والمحافظ على تراث مجدها.

وكذلك شأن الابناء الذكور بالنسبة الى الاسرة في نظر الشارع الاسلامي: فأن الابناء لما كانوا هم الذين يخلفون ابأهم في اسرته؛ كانوا في حاجة الى المال اكثر من اخواتهم البنات اللواتي يندمجن في اسرة اخرى، غير مكلفات فيها النفقة.

فالمسألة اذن ليست مسألة تفضيل رجل على امرأة وانما هي مسألة اجتماعية اقتصادية.

على انه ظهر اخيراً لمديري المعامل الصناعية ان متوسط قوة المرأة اقل من نصف متوسط قوة الرجل ومن اجل ذلك ضاعفوا اجرته.

☆☆☆

والامر الثالث من الامور الخمسة شهادة المرأة نصف شهادة الرجل وكلمتي في الجواب عليه ان سر الشرع فيه ليس لكون محمد يعتقد في المرأة الحقارة او انها تكذب في شهادتها.

وانما هو يرى ان المرأة بعيدة عن معترك الاعمال التي يقوم بها الرجال

والتي تكثر فيها الدسائس والمخادعات معها المرأة عليه من ضعف ثقتها بنفسها، وقلة ضبطها، وسرعة انخداعها، حتى انهم قد يخدعونها بقولهم لها: ياحسناء فما بالكم بغيرها من كلمات التمليق والثناء؟!!

هذه هي نفسية المرأة التي تحققها محمد (ص) فرأى ان تتعزز عند تحمل الشهادة بواحدة من بنات جنسها، فتذكر كل منهما صاحبتها. وتتعاونان على الثبت من الامر الذي تشهدان فيه. فتنصيف الشهادة اذن هو اثر من آثار اعتقاد السذاجة الملائكية في المرأة، لا اعتقاد الحقارة او خراب الذمة فيها. على ان محمداً (ص) ميز المرأة على الرجل في بعض مواطن الشهادة: الرجل لاتقبل شهادته وحده اما هي فتقبل شهادتها وحدها في الامور الخاصة بالنساء.

وكفى بهذا دلالة على ثقة الشارع بالمرأة واعتقاد سلامة وجدانها.

* * *

ومن الامور التي يشنع بها العالم المتمدن على محمد (ص) (شريعة الطلاق) لكن هذه الشناعة عادوا فشاركونا فيها بمقياس اوسع.

محمد يعلم اننا مهما تحرينا ان يكون الزوجان متلائمين في اخلاقهما وطباعهما لابد ان يقع (سوء استعمال) في هذا التحري: حتى يؤدي تباين الطباع بين الزوجين احيانا كثيرة الى فساد الحب الزوجي وتنغيص الهناء العائلي: فيضطر اذ ذاك الى التفرقة. وكثيراً ماكانت هذه التفرقة في مصلحة الزوجة فتتخلص من زوجها الشرير.

ومع هذ فان محمداً يكره الطلاق، ويأمر بالصبر. ففي القرآن (وعاشروهن

بالمعروف : فان كرهتموهن فعسى ان تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيراً كثيراً)

فالوحي المحمدي كابر الرجل في حسه مراعاة للمراة حتى قال للرجل : انك وان شعرت بكره لامرأتك . ما يدريك ان يكون في هذا الكره الخير الكثير ؟ فاصبر عليها إذن .

الى هذا الحد حض محمد (ص) على تجنب الطلاق . لكن اتباعه خالفوا ناموس شريعته فنزل بهم البلاء .

وهذا لا ترجع تبعته عليه : الا ترون ان النواميس الطبيعية نفسها كنواميس الصحة والمرض مثلا : يخالفها الناس فيحل بهم الشقاء ؟

وليس الذنب في ذلك على الاطباء ، ولا على العناية الالهية التي خلقت تلك النواميس . وانما الذنب على الذين خالفوها . قال شيشرون : « من كان غير سعيد فالذنب ذنبه » .

افرط المسلمون في الطلاق فطلقوا من دون قيد ولا شرط . وفرط النصارى فلم يطلقوا حتى عند وجود الضرورة .

ثم في آخر الامر احس الفريقان بالشقاء فعاد المسلمون في تركيا الى تضييق دائرة الطلاق ، وعاد النصارى في اميركا وانكلترا الى توسيع تلك الدائرة . وستكون النتيجة الاعتدال والتوسط ومراعاة الحكمة في التطليق وهو ما اراده محمد في تشريع الطلاق .

* * *

وآخر الامور الخمسة التي يعيبون بها المسلمين (تعدد الزوجات)

وكلمتي في هذا الموضوع تحتاج الى شيء من الجرأة في التصريح . ولكنني مع هذا سأعمل جهدي في العدول عنه الى الاشارة والتلميح . واقول اولا : ان محمداً (ص) لم يخاطب بشرعه طبقة واحدة من مجموعة البشر كما خاطبها غيره من المشترعين . وانما هو كان يخاطب الطبقات كلها او الامم كلها : وفيهم امة متوحشة ، وامة نصف متمدنة ، وامة متمدنة .

فمحمد (ص) في تعدد الزوجات يقول لكل امة : خذي من شريعتي المرنة ما يناسب محيطك ، وحالة اجتماعك.

فاذا قالت طبقة من البشر : انا لا اعدد قال لها محمد : تحسنين صنعا لأن التعدد في شريعتي مباح لا واجب .

لكن هناك طائفة اخرى في افريقية او الصين مثلا تضطرها حالة اجتماعها او امزجة طباعها الى التعدد .

فمحمد اذا دعا هؤلاء الى دينه لا يقسر طباعهم على ما يريد ، ولا يكلفهم ترك التعدد خشية ان يدخل عليهم العنت والمشقة ، ما داموا في هذا الطور من اطوارهم الاجتماعية ، ومن ثم اباح لهم التعدد . ولا سيما اذا كان احد الزوجين عقيما ، او كثر عدد النساء بسبب اجتياح الحروب للرجال كما هو واقع اليوم في اوروبا ، او لغير ذلك من الاسباب .

* * *

بل نعود فنقول : مالنا وللامم التي يبيح لها محمد التعدد بسائق من بيئتها او امزجتها ؟

هذه الامم المتمدنة نفسها . تعدد بالفعل ، وتنكر بالقول ، وتسب الذين

يعدلون .

عرف محمد امزجة البشر ودرس طبيعة رجولتهم درسا عميقا . فهو يكافح هذه الطبيعة وجها لوجه ، ويقول لأصحابها :

ألستم بالفعل لا تصبرون على طعام واحد ؟ ألستم مدفوعين بسائق من طبيعتكم او امزجتكم او اسباب اخرى — الى ان تعرفوا امرأة ثانية غير امرأتكم الشرعية ؟ امحوا هذه الطبيعة من نفوسكم حتى امحو انا التعدد من شريعتي .

وماذا ينفع الانكار او تجدى المكابرة في هذه المسألة ؟

ان كنا لا نرى اليس لنا آذان تسمع ؟

هؤلاء الرجال الذين يريدن ان يعرفوا نساء غير زوجاتهم الشرعيات لا يقول لهم محمد : اعرفوهن بالحرام ، واحشروا سلالتكم الى ملاجئ اللقطا والايتام . بل يقول لهم : اذا كنتم ولا بد فاعلين ، فاعرفوا المرأة الثانية عن طريق تسامح الدين . اعرفوها عن يد الشيخ والقسيس ولا تعرفوها عن يد الشيطان وابليس .

فاباحة الزوجة الثانية في شرع محمد اذن انما هو سد لحاجة الطبيعة البشرية المتمردة التي لا تقاوم في بعض الاشخاص .

على ان كل خطر على العائلة تتوقعه من وراء التعدد ينبغي ان تتوقع مثله من وراء اتخاذ الخلائل . فالعائلة اذن معرضة للخطر في الاوساط غير الاسلامية كما هي معرضة للخطر في الاوساط الاسلامية

وقد بلغنا لهذا العهد ان المشترعين في اوربا اخذوا يفكرون في وضع قانون للتعدد السري يضيق دائرة شره ، وينقذ العائلات من الشقاء الذي

يلحقها بسببه

هذا هو ايتها السيدات والسادة ما اردت ان اقوله في موضوع محمد (ص) والمرأة.

وقد تحققتم منه ان محمداً انما جاء للتبشير بالمرأة ومنحها حريتها، وان الطلاق وبقيته الامور المخمسة لا تشوه تلك الحرية بحال. ولكن اذا كان محمد (ص) يريد للمرأة ان تكون حرة بالمعنى الحقوقي فهو في مقابل ذلك يريد منها ان تكون حرة بالمعنى الاخلاقي.

فالحرة غير الحرة، تجعل الحياة مرة.

اما الحرة الحرة، فهي التي تكون للعين قرة، وفي جيد المحافل درة، وفي جبين وطنها غرة.

القيت في حفلة جمعية تهذيب الشبيبة السورية في بيروت مساء الاربعاء في ١١ كانون الثاني ١٩٢٨